

نهر التاريخ... رؤية إسلامية

تاريخ البشرية ماض وحاضر واستشراف للمستقبل . . . والتخوم الفاصلة بين هذه الأدوار تكاد تكون ذائبة ، والماضى يعيش فينا ولا نستطيع إنكاره ، والمستقبل فينا كالماضى سواء بسواء . . . إنها أضلاع الزمان الثلاثة التى لا تنفصل . . . وعندما يتم الضغط على الماضى وحده تصاب الأمة بمرض الغياب التاريخى . . . كما أن الضغط على الحاضر - دون وعى بالماضى والمستقبل - غياب عن الذات ، ومغامرة بالحضارة كلها ؛ فى رحلة ضياع لسفينة بعدت عن معالمها ومرافئها الثابتة . . . !!

* * *

كل الأحجار فى التاريخ شواهد ناطقة تحكى قصة قوم كانوا هنا وصنعوا شيئاً . . . ولم توجد بعد أحجار صامته . . . ومن العبث أن نحاول إخراس أصوات الماضى التى تخاطب عقولنا ووعينا التاريخى الفطرى الذى يقول لنا: إننا جنس خاص . . . إنسان تاريخى . . . كائن يموت أفراده ، وتموت بعض شرائحه . . . لكنه باق إلى اللحظة الحاسمة . . . القارعة !!

* * *

فى أحقاب متفاوتة من التاريخ الإنسانى وضعت العناية الإلهية شارات ثابتة تأخذ بيد كل حضارة تريد الإقلاع من جديد نحو الإنسانية النقية . . . قدم لنا أبونا آدم أول شارة حين أخطأ وتاب . . . فإدراك الخطيئة والإقلاع عنها خاصة إنسانية متفردة . . .

وقدم هايل الشارة الثانية حين رفض أن يكون القاتل ورضى أن يكون
المقتول . . . فى سبيل المبدأ . . .

وقدم كل نبى شارة أخرى هى خلاصة حياته ودعوته إن هذه الشارات
التي بدأت بأدم ثم نوح ، وإبراهيم . . . وانتهت بمحمد (عليهم السلام) هى
معالم الهدى فى التاريخ . . . وكلها ذات جوهر واحد ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ﴾
[نوح : ٣] ، والخلاف بينها فى التفاصيل الملازمة لحياة الإنسان عبر التاريخ . . .

* والانحراف فى تاريخ الإنسانية جاء من ابتعادها عن هؤلاء الهداة
العظماء . . . إنها اضطرت بعيداً عنهم . . . وتصارعت باسمهم بعيداً عن
الحوار الباحث عن الحق . . . ودفعت أجيالاً كاملة لرفضهم . . . واخترعت
النظريات ضدهم . . .

ولن يعود التاريخ إنسانياً إلا إذا انصهر العقل فى بوتقة الإنسانية ، ليكون عقل
إنسان . . . لا عقل شيطان !!

أجل : إن فى تيار التاريخ تصاميم سابقة وثابتة . . . لكنها لا تحول - ولم تحل -
دون الإبداع . . . إنها معالم ثابتة دائماً حتى لا تتوه الإنسانية فى الصحراء !!

فى نهر التاريخ يتدفق الماضى موصولاً بالحاضر والمستقبل . . . وتظهر القداسة
فى بعض العصور كما تظهر النجوم العالية التى يسترشد بها الملاحون فى الليالى
الطويلة المظلمة . . . فليست البشرية بمجموعها مقدسة ، كما أن هذه الإنسانية
ليست مجموعة حيوانات مفترسة . . . إنها هذا وذاك . . . إنها أصلاً . . . «فى
أحسن تقويم» . . . لكنها فى أكثر مراحل التاريخ : فى «أسفل سافلين» . . .
وستبادل البشرية هذه الأدوار المتعاقبة إلى يوم القيامة . . .

وعندما يتأمر بعض المنسويين إلى الإنسانية فيحاولون تحطيم فترات القداسة
والمثال ، فإنهم يسعون - بوعى أو بغير وعى - لقيادة الإنسانية إلى نسبة كاملة ،
وإلى ليل طويل معتم ؛ لا نجوم فيه (!!) وستغرق السفينة لا محالة . . . فالعقل
والبصر لا يغنيان عن إشارات البصيرة الثابتة ، وكواكب الحقيقة !!

* كانت البشرية لا شىء... عندما لا ذكر له... أحيتها العناية الإلهية... وسوف تميته بعد سلسلة حضارات متصارعة... ثم تحييها ليوم الحساب الأخير... فهكذا كانت لها بداية... وكان لها سياق وجود حتى هو : هذا التاريخ وهذه الحضارات... ثم سيكون لها رجعة إلى الله للحساب النهائي !!
لا استمرار أبدى... بل هى رحلة مغلقة... لها بداية ونهاية... بطلها الإنسانية... ولن تكون هذه الرحلة عبثاً باطلاً...

فالعناية الإلهية لا تخلق للهو ولا للعب... وحاشاها... إنها أعظم من أن تجعلنا دمي، أو قطع شطرنج... إن لنا وجوداً بقدر مسؤوليتنا... إننا مكلفون بمهمة خالدة...

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ (١٦) لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ (١٧) بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء : ١٦ - ١٨]. والحق «رسالة الأنبياء»... حداة القافلة الإنسانية وهداتها...

وفى النهاية تنتهى فصول الكتاب والملحمة ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء : ١٠٤].

فالغاية الإنسانية محتومة... والمصير محكوم بأعمال الناس، وبفاعلية الإنسان الإيجابية الصالحة فى التاريخ... ﴿فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ﴾ [الأنبياء : ٩٤]، لكن إذا انتهت دورة تاريخية وأغلق الستار؛ فمحال أن يعود أصحابها قبل يوم البعث : ﴿وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنْهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [الأنبياء : ٩٥].

إنهم مسؤولون... لقد كانوا أحراراً، وكانت لديهم شارات الطريق وشروط الصلاحية ومؤهلات البقاء... لكنهم صدفوا عن كل ذلك واعتمدوا على أبصارهم المحدودة؛ وعقولهم المكبلية بإطار وعى الزمان والمكان، وخبرة الجيل الواحد... فاستحقوا الموت...

لقد استمرءوا أن يكونوا مستهلكين فى التاريخ... مجرد موضوع من موضوعاته... ولم يرتفعوا إلى مستوى خلافة الله فى صناعة الحضارة، وعمارة

العالم، وتسخير كونه . . . لقد عاشوا فى دائرة الذات والمطالب الجسدية ، ولم يهتموا بالمطالب الروحية ، ولا بغايات الوجود . . .

* * *

نعم : إن نهر الزمان متدفق موصول لا تكاد تنفصل فيه لحظات الماضى عن لحظات الحاضر عن المستقبل ، لكن ذلك لا يعنى أن الزمان لا يمكن تقسيمه إلى ماض وحاضر ومستقبل ، وأن هذا التقسيم له وجود فى الواقع ؛ وهو وجود شعور ووعى وحياة . . . والغاية داخلية وخارجية معاً ، فكل كائن حى له غاية خاصة به تتعاون جميع أجزائه من أجل تحقيقها . . إنها غايته الداخلية التى تنسجم مع الغاية الخارجية ؛ التى تربط كل غاية داخلية بالغاية الخارجية العامة ؛ وهى تحريك أجزاء الكائنات نحو مصير واحد ، يتم فيه الوصول إلى يوم السعادة الأبدية أو الشقاء الأبدى أو الفناء الأبدى .

إن وجود يوم ينتهى فيه التاريخ البشرى ويتم فيه الحساب العام حقيقة لا بد من التسليم بها ؛ فإن القول بأن التاريخ البشرى - الذى له بداية يعترف بها الجميع - ليس له نهاية ؛ هو أمر لا ينسجم ومنطق العقل ، ولا الدين كله . . . إنه يفقد التاريخ معناه ، ويجعله بلا معنى ، والفرق بين التصور اللاهوتى (اليهودى والمسيحى) للغائية التاريخية ، وبين التصور الإسلامى . . . أن الغائية فى التصور الإسلامى لا تقفز فوق مؤهلات الدنيا ، ولا تختزل الدنيا بكل ما تتطلبه من معقولة وإيجابية اعتماداً على الغاية النهائية . . . إنها تبتعد إلى الآخرة عن طريق الدنيا ، وبقدر الإيجابية فى الدنيا - مع استقامة الوسائل ، وشرف الغايات - تكون الدرجة فى الآخرة .

إن الفلاسفة العقلين فى عصر التنوير (الأوروبى) قد حاولوا علاج الخلل فى التصور اللاهوتى للغائية ؛ لكنهم سقطوا فى حفرة أعمق فجعلوا الغاية دنيوية بحتة . . . إنهم قد يكونون معذورين . . . فاللاهوت المسيحى يسيء إلى الدنيا إساءة بالغة ، ويجعلها صفرًا فى الرحلة إلى الخلود . . . بينما هى الطريق . . . إنه يقول : أهجر الدنيا ؛ تضمن الآخرة ، وازهد فى الطيبات . . . ولا تعمر . . .

ودع ما لقيصر لقيصر . . . وحسبك أن تؤمن بالمخلص الذى انتحر^(١) من أجلك . . . أما التصور الإسلامى فيدعوك إلى المشاركة الكاملة فى الدنيا تعميراً وأكلاً من الطيبات ، ومقاومة للباطل ، وصناعة لمؤسسات الحق ، ونشراً للخير والمنفعة . . . وأنت عندما تموت فى هذا الطريق تكون قد عبرت الدنيا عبوراً كريماً ، وأديت واجبك بهذا الحضور الدنيوى المكثف . . . وإياك والغياب عن الدنيا وتركها للباطل يمرح فيها ، وإياك أيضاً أن تجعل أهدافها - مثل الفلاسفة العقليلين - دنيوية بحتة . . . إن عناية الله توجه التاريخ البشرى وترعاه ، وتقوده ليوم لا ريب فيه ، لكن ذلك لا يتم على حسابك أيها «الإنسان» . . . أيها الفاعل والصانع للتاريخ والحضارة - برعاية الله . . . إنك مسؤول مسئولية كاملة . . . وعلى قدر مسؤوليتك تحاسب ، وعناية الله تعفيك من الحساب عن الكوارث الطبيعية ، وعن كل ما هو فوق طاقتك !!

إن حركة التاريخ أماناً قد تصنيفنا بنوع من الضبابية فى الرؤية ، وقد يخيل إلينا - فى بعض اللحظات - أن الغاية غير معقولة ، لكن عدم إدراكنا لمعقوليتها لا يعنى عدم وجودها ، فعقولنا المجزأة ، والتى تعمل بطريقة محكومة بالبيئة وبمؤثراتها الذاتية لا تقوى على رؤية المعقول الكلى . . .
لنتذكر هنا قصة موسى والخضر عليهما السلام .

إن «كانط» شعر بهذه الأزمة وتساءل : «إن أحداً لا يستطيع تجنب شعور معين بالامتناع ، عندما يلاحظ أفعال الناس التى تعرض على المسرح الكبير للعالم ؛ فالأفراد يظهرون الحكمة هنا وهناك ، ولكن نسيج التاريخ الإنسانى - ككل - يبدو أنه منسوج من الحماسة ، وتفاهة الأطفال ، وغالباً من الآثام الطفيلية ، وحب الدمار . ونتيجة ذلك فإننا فى النهاية حائرون فى معرفة ما هى الفكرة التى نضوغيها عن نوعنا الذى نشعر بفخر عظيم بمميزاته»^(٢) .

(١) التصور المسيحى يرى أن المسيح ﷺ قبل أن يقتل طواعية من أجل التكفير عن خطيئة آدَم وخطايا أبنائه ، وكان يستطيع - كابن الله - أن ينقذ نفسه ، أى أنه - بإيجاز - انتحر ، والإسلام يرفض عملية القتل أصلاً ، ويرى أن الله أنقذه من أيدي اليهود ، ورفع له ، كما أنه يرفض الانتحار !!
(٢) و . هـ . وولش : مدخل لفلسفة التاريخ ، ترجمة أحمد حمدي ، مؤسسة سجل العرب ، مصر ١٩٦٢م ، ص ١٦٦ .

لكن «كانط» لا يلبث أن يجيب عن هذا اعتماداً على فكرته المعروفة في فلسفة التاريخ ، وهى فكرة «التقدم» . فهو يرى «أننا إذا اكتفينا فعلاً بالنظر إلى الأحداث التاريخية من وجهة نظر الأفراد المعنيين فقط فلن يصادفنا هناك سوى جمع مضطرب من الوقائع غير المرتبطة ، والتي لا تعنى شيئاً فى ظاهرها» .

ولكن الأمر قد يختلف إذا حولنا انتباهنا إلى أحداث النوع الإنسانى بأسره ؛ بدلاً من أحداث الفرد . فإن ما يبدو من وجهة نظر الفرد فوضى وبلا قانون قد يبدو بالرغم من ذلك ذا نظام ومتعلقاً إذا نظر إليه من وجهة نظر الأنواع .

والوقائع التى بدت فيما مضى بلا قيمة تبدو وكأنها تخدم هدفاً أكبر ؛ فقبل كل شيء : إنه من الممكن أن يتبع التاريخ كما فى الطبيعة ، أو العناية الإلهية (يستخدم كانط الكلمتين بمعنى واحد) خطة طويلة المدى غايتها البعيدة هى الأنواع الإنسانية ككل ، وقد يكون ذلك بتضحية بخير ومنفعة الفرد^(١) .

ويلتقى مع «كانط» فى فكرة «التقدم المطرد» كثير من فلاسفة التاريخ فى عصر التنوير ؛ فقد أشار «أكتون» إلى أن التاريخ (علم تقدمى) وقال : إننا مرغمون على افتراض أن التقدم فى الأمور الإنسانية هو الفرض العلمى الذى يكتب التاريخ وفقاً له^(٢) . وكان المؤرخ جيبون - أبرز مؤرخى عصر التنوير - من المتحمسين لفكرة التقدم المطرد لدرجة أنه زعم (بأن كل عصر فى العالم قد أضاف وما زال يضيف إلى الثروة الحقيقية للسلامة الإنسانية وسعادتها ومعرفتها ، وربما فضيلتها)^(٣) ، وقد سمي زعمه هذا (النتيجة السازة الخاصة) ، ومن الغريب أنه كتب هذه النتيجة فى كتابه المعروف عن انحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها ، (الفصل الثامن والثلاثين) . . لكن فكرة التقدم المطرد سرعان ما انهارت على يد فلاسفة تاريخ القرن العشرين وعلى رأسهم شبنجلر ، وتوينبى .

وعلى الرغم من وجود بعض العناصر اللاهوتية فى فلسفة توينبى ، ومن بعض تفاؤله الحذر بمستقبل للمسيحية . . إلا أن الفكر اللاهوتى كان أمره قد

(١) وولش : مدخل لفلسفة التاريخ ١٦٧ .

(٢) إدوارد كار : ما هو التاريخ ، ترجمة أحمد حمدي ، نشر مؤسسة سجل العرب ١٩٦٢ ، ص : ١٤٤ .

(٣) إدوارد كار : المرجع السابق ، ص : ١٤٣ .

انتهى ، ولم يعد يحظى إلا بقليل من التقدير ؛ ذلك لأن إلغاء دور الإنسان الأساسى فى صناعة التاريخ أمر لا يمكن قبوله ، كما أن القول بأن حوادث التاريخ تخضع لقدرة ربانية ؛ لا تترك للإنسان دوراً يوازى مسؤوليته هو أمر مرفوض أيضاً ؛ بل إن هذا الفكر اللاهوتى الذى يسميه الفيلسوف والمؤرخ «غوستاف لوبون» اعتقاداً صيبانياً^(١) قد أساء إلى التصور الإسلامى لفلسفة التاريخ ؛ لأن كثيراً من الأوروبيين وتلامذتهم الشرقيين لم يحاولوا دراسة الإسلام دراسة مستقلة بعيدة عن الفكر اللاهوتى العام .

ولم يكن خطأ الفكر اللاهوتى فى إغفاله الدور الأساسى للإنسان فحسب . . بل أيضاً فى إغفاله للسنة الكونية والاجتماعية التى تخضع لها جميع حوادث التاريخ . والإسلام هو وحده التصور الذى جمع بين وجود «الغاية» للتاريخ ، ووجود «معنى» لكل وقائعه إن ظاهراً أو باطناً ، وإن عاجلاً أو آجلاً ، ووجود «عناية إلهية» ووجود دور أساسى «للإنسان» وخضوع الإنسان والطبيعة لسنة كونية ، . . . هذه الأبعاد هى أضلاع لمعادلة متكاملة متوازنة تحكم حركة التاريخ ، وتحقق للإنسان القدر المنطقى من الحرية الذى يتوازى مع قدراته وإمكاناته الزمانية والمكانية . . . وليس بينها أى تناقض كما يتصور الفكر اللاهوتى أو المفكرون العقلليون !!

* * *

إن الفكر العلمانى التنويرى كان منفعلاً فى مواجهة الفكر اللاهوتى ، وكان - بالتالى - معبراً عن (أزمة روحية) وهو يقرر - كما يقول برجسون «إن من العبث أن يحاول الإنسان أن يعين للحياة غاية ، بالمعنى الإنسانى لهذه الكلمة . فإن الغاية - بهذا المعنى - معناها وجود نموذج من قبل لا يعوزه إلا أن يتحقق بالفعل ، أى أننا نفترض - حينئذ - فى الواقع أن كل شئ موجود دفعة واحدة ، وأن المستقبل يمكن أن يقرأ فى الحاضر . . . بينما الحياة تقدم وتتابع واستمرار»^(٢) . . . ولم

(١) فلسفة التاريخ : ترجمة عادل زعير ، نشر دار المعارف بمصر ، ١٩٥٤م ، ص : ٥٧ .

(٢) عبد الرحمن بدوى : شبنجلر : ٢٣ ، نشر مكتبة النهضة بمصر ١٩٤١م .

يتساءل هذا المفكر : إلى متى سيظل هذا التتابع والاستمرار ؟ إن أمامنا كثيراً من الحضارات قد اندثرت أو تحولت إلى ذرات فى جسم حضارات أخرى ؛ بعد أن ابتلعتهما فى أحشائها وحولتها إلى جزء منها ، ويوما ما ستصل الحضارة الغربية إلى ساعة الأفول ، أو الانتحار ، أو الامتلاء ، لدرجة الموت ؛ وقد تقوم حضارة أخرى أكثر روحانية وإنسانية وتوازنية . . . لكن التسلسل والدور لا يمكن أن يستمر متتابعين دون نهاية ، فوجود الزمان المطلق المتحرر المجرد - يمثل معنى شعرياً - أكثر منه معنى واقعياً . . . !!

﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُعْثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [التغابن : ٧] .

* * *